(كلّ يومٍ هو في شأن)
الثوابت والمتغيرات في الطبيعة والمجتمع والإنسان

عبد الرحمن السالمي *

يتقابلُ بل يتوازى في القرآن الكريم مبدأ الثبات والتغير. والحقُّ أنّ الثبات لا يَمْثُلُ بكماله إلاّ في الذات الإلهية: (هو الأولُ والأخرُ والظاهرُ والباطن) و(يبقى وَجْهُ ربِّكِ ذو الجلال والإكرام). وهكذا يكون الثابتُ والباقي ضماناً للتغيير الذي يتناول الطبيعة والإنسان، والذي تشير إليه الآية الكريمة بوضوح: (كلّ يومٍ هو في شأن). ثم إنّ الثابت والباقي -جلّ وعلا- أستنّ نظاماً مُحْكماً للثوابت النسْبية والتغيُّرات الطبيعية والأخرى الإنسانية. وضرب أمثلة كثيرة لذلك بمظاهر الطبيعة وظواهرها، ومن بينها الشّمسُ والقمرُ، والسموات السبع، والأرَضون والجبال، بحيث يحدُثُ التغيير من ضمن السُنَن والثوابت، فيكون تغييراً منضبطاً قائماً على الحركة ذات القوانين الدائمة بإرادة الله -عزّ وجلّ-. فالعلّة المباشرةُ هي السُنَّة التي لا تتغير ظاهراً، وأما المعلولات المباشرةُ وغير المباشرة وهي تلك التي تنتجُ وتتولى إلى أن يقع التغيُّر في قلب الثابت النسْبيِّ من ضمن السُنَن والقوانين المنظمة للخلق، والتي اقتضتْها إرادةُ البارئ وسيَّرتْها لمستقرٍ لها قدرتُه وحكمتُه.

إلا أنّ القرآن الكريمَ يُطلِعُنا على نوعين من السُنَن والقوانين التي تحكم الكَون والعالَم من جهة، وإنسان هذا العالم أفراداً ومجتمعاتٍ من جهة أخرى. القوانين الأولى والطبيعية حتمية ولا تتبدل: (لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدرك القمر، ولا الليل سابقُ النهار، وكلٌّ في فَلَكٍ يسبحون)- والسُنَن أو القوانين الأخرى شرطية إذا صحَّ التعبير، أي أنّ حدوثَ المسبَّبات معلقٌ على حدوث الأسباب (إنّا خلقْنا الإنسانَ في أحسن تقويم. ثم رددْناهُ أسفل سافلين، إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلهم أجْرٌ غيرُ ممنون). فالقوانينُ الأولى فيزيائيةٌ أو دائريةٌ لا يُداخلُها الخَلَلُ وتترتب عليها آثارُها تلقائياً أما السُنَن الإنسانية والاجتماعية فعَاديَّة لاتصّالها بالإنسان الذي تتجاذبُهُ عدةُ قوى رأسُها الإدراكُ الواعي والعقلُ المدبّر وأطرافُها الأخرى العواطف والنزاعات والتي ذكرها القرآنُ تحت اسم النفس والروح وما اتّصل بهما من إمكانياتٍ ودوافع. وهذا التجاذب يتجلّى في النهاية في تصرُّفاتٍ تترتب عليها آثارُها المتصلة في النهاية باختيارات الإنسان وتصرفاته وأعماله. فيمكنُ استناداً إلى ذلك التحدث عن سُنَن فردية واجتماعية، ليس المستطاع اعتبارُها حتمية، لكنها بالتأكيد ليست عشوائية أو خاضعة للمصادفة. ليست حتمية في حياة الإنسان، وحيوات المجتمعات، لأنها يمكن أن تحدث أو لا تحدُث. لكنها ليست عشوائية، لأنّ العلّة فيها ترتبطُ بالمعلول من جهة، ولأنَّ طبائعَ الإنسان وقُدُراته لها سياقاتُها وشروطُها

وظروفَها التي لا تَخل في العادة، أو أنه تترتّب عليها نتائجُ يمكنُ توقّعها وانتظارُها.

على أنّ الفرق بين القوانين الطبيعية والكونية من جهة، والأُخرى الإنسانية والاجتماعية من جهةٍ ثانية، لا ينحصرُ بالحتمية أو عدمها؛ بل يطّرد أيضاً للوصول إلى التعلّقات. فآثار الحتمية الانتظامُ بحيث يستمرُّ الكونِ من ضمن قوانينه، وآثارُ السُنَن عُمرانُ العالم، وازدهارُ الاجتماع الإنساني، أو حدوثُ عكس ذلك، أو بعضٌ منه. إذ إنّ العقل والإرادة يتدخلان على المستوى الفردي، كما أنّ العقل الجماعيَّ أو الإرادة الجماعية ينطلقان أو يتخلّفان على المستوى الاجتماعي. وإذا تعاظمت هذه الظاهرةُ أو تلك إيجاباً أو سلْباً صارت مسألةً عالمية.

جاء في القرآن الكريم: (إنّ الله لا يغيّر ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفُسهمْ). فقد خلق الله الإنسان، ويعلمُ ما توسوسُ به نفسُه، وزوَّده بالعقل الذي تغذوهُ التجارب، وأرسل إليه الرسل مبشّرين ومنذرين. فاجتمع للإنسان مرجعان للتدبُّر والتصرُّف: المرجعُ الفطريُّ تقودُهُ الدوافعُ وتعقُّلها، والمرجعُ الإلهيُّ الذي يطمئن ويهدي بالإيمان وبإرادة الخير والتسديد. ولذلك جاء التأكيدُ في الآية الكريمة: (إنّ الله لا يغيرّ ما بقوم...) فالتغييرُ باتجاه الاستناد إلى الوعي والإرادة، الوعْيُ باكتشاف مقتضياتٍ الفطرة والضرورة، والآراء باتّجاه السَير في السُبُل الدافعة بمقتضى الاستخلاف هدايةً وعمراناً ونظراً للدارين. فلا شكَّ أنّ التغيير الذي يبني ويعمّر هو ذاك الذي تترتّب فيه المسبَّباتُ على الأسباب البحتة أو المادية، أمّا التغيير المتكاملُ فهو ذاك الذي ينظرُ لعمران الفرد والمجتمع والعالم من منظور خلْق الله للإنسان في أحسن تقويم، وهدايته للنجدين، واختياره بالمسؤولية الواعية والأخلاقية لخير الدارَين أو ارتباطهما أخلاقياً. والله -سبحانهُ وتعالى- يكلؤه بالعلم والعناية والرحمة من وراءِ القصد، ومن وراءِ اللطف والتسديد والجزاء على الخير، وعكسهُ: (فمن يعملْ مثقال ذرةٍ خيراً يره، ومن يعملْ مثقال ذرةٍ شراً يره).

إنّ الآيةَ الكريمة: (كلّ يومٍ هو في شأن)تشير إلى أنّ السنَّة في التغيير الدائم والمستمرّ في حياة المجتمعات الإنسانيةً، كما في حياة الأفراد. وهو في أصوله البحتة يحقّق إرتباطَ الأسبابِ بالمسبَّبات. لكنه في معناه الكامل والمتكامل يصنع بتوفيق الله وتسديده حياةً أخلاقية مسؤولة على مستويات الفرد والجماعة والعالم. ولذا أتى قولُهُ تعالى بعد (كلّ يومٍ هو في شأن) (فبأي آلاء ربكما تكذّبان). فالتغييرُ تجديدٌ وتقدمٌ وعمرانٌ للأفراد والمجتمعات. لكنه التغيير الذي يتأسَّس على الفطرة والثوابت والسُنَن. ويقومُ على الوعي بالمسؤولية الأخلاقية والإنسانية: (إنّ العهد كان مسؤولا). وإذا حدث الأمران: الانطلاق من الثوابت والسُنَن، والنظر إلى المصالح بطرائقٍ شمولية: (فاستبِقوا الخيرات) استوت طريق الخير، وسادت المسؤولية الأخلاقية الخيّرة للعالم. هذه هي رؤية الإسلام للتغيير، أوَلم يقل -عزّ وجلّ- مخاطباً نبيّه الكريم: (وما أرسلناك إلاّ رحمةً للعالمين)؟!

****

*) رئيس تحرير المجلة.